الفصل الثالث

القــرآن الكريم

هل القرآن معجزة الرسول الوحيدة؟

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لخاتم النبيّين محمد ﷺ، فالأنبيّاء السابقون كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام الذين جاؤوا بكتب سماوية ومعجزات، كانت معجزاتهم من غير كتبهم، كتحول النار المُحرِقة برداً وسلاماً، أو تحوّل العصا إلى حيّة تسعى، أو إحياء الأموات بإذن الله. ومن الواضح أن كل واحدة من هذه المعجزات كانت مؤقتة وسريعة الزوال. أما معجزة نبيّ الإسلام فهي كتابه السماويّ. فالقرآن هو في الوقت نفسه كتاب وهو برهان رسالته. ولهذا السبب فإن معجزة خاتم النبيّين هي، خلافاً لسائر المعجزات، خالدة وباقية وليست مؤقتة وسريعة الزوال.

إن كون القرآن الكريم هو معجزة خاتم النبيّين ﷺ لهو أمر ينسجم مع عصره وزمانه الذي كان بداية عصر تقدم العلم والحضارة والثقافة، وهذا التقدم يوفر الفرص التدريجية لاكتشاف جوانب من إعجاز هذا الكتاب الكريم كانت غير مكشوفة سابقاً. كما أن خلود هذه المعجزة يتناسب مع خلود الرسالة الباقية إلى الأبد وغير القابلة للنسخ.

وقد أعلن القرآن الكريم بصراحة عن جانبه الإعجازيّ وفوق البشريّ في عدد من آياته الكريمة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]؛ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: 38]؛ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13]. كما يصرح أيضاً بوقوع معجزات أُخرى بواسطة خاتم النبيّين ﷺ غير القرآن الكريم.

ويشير القرآن إلى أمور كثيرة تتعلق بالمعجزة، كضرورة مصاحبة المعجزة

لرسالات أنبيّاء الله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: 25]، وأن المعجزة «بيّنة» وحُجّة قاطعة، وأن الرسل يأتون بالمعجزات بـ «إذن الله»، وأن الأنبيّاء إنما يأتون بالمعجزات بالمقدار الذي يكون «آية» و«بينة» على صدق أقوالهم، ولكنهم ليسوا مكلَّفين بالاستجابة لكل مطالبات الناس، فليست مهمتهم الاستجابة في كل يوم وساعة لمن يطالبهم بالمعجزة، وبعبارة أخرى، فإن الأنبيّاء لم يفتحوا «معارض للخوارق» ولا مصانع لإنتاج المعجزات، وعندما يشير القرآن الكريم إلى هذه الأمور المتعلقة بالمعجزة فإنه يذكر بصراحة معجزات الكثير من الأنبيّاء السابقين مثل نوح وإبراهيم ولوط وصالح وهود وموسى وعيسى ويصدِّقها بشكل لا يقبل التأويل.

وفي هذا المجال يزعم بعض المستشرقين والقساوسة المسيحيين، استناداً إلى آيّات قرآنية ترفض مطالبة المشركين بالمعجزة، أن نبيّ الإسلام ﷺ كان يقول للناس: ليست لي معجزة غير القرآن. فإذا قبلتم القرآن كمعجزة فبها، وإلا فإنني لا أقدر على الاتيان بمعجزة أخرى. وقد تبنّى بعض الكتاب «المتنورين» المسلمين هذه النظرة في الفترة الأخيرة، وعرضوا لرأيهم على الشكل الآتي: إن المعجزة هي دليل، ولكنه دليل لإقناع البشر غير البالغين في مرحلة الطفولة، الذين يبحثون عن أمور غير عادية ومثيرة للإعجاب. أما الإنسان الرشيد فلا يهتم بهذه الأمور، بل بالمنطق. ولأن مرحلة نبيّ الإسلام ﷺ هي مرحلة العقل والمنطق وليس مرحلة الأوهام والتخيلات الذهنية، فإن نبيّ الإسلام ﷺ امتنع بإذن الله عن الاستجابة لأية مطالبة بمعجزة غير القرآن. يقول أحدهم:

«إن الاستعانة بالمعجزات والأعمال الخارقة للطبيعة كان أمراً ضروريّاً للأنبيّاء السابقين، ذلك لأن هداية الناس في تلك المراحل بالاستناد إلى الدليل العقلي كان يبدو أمراً شاقّاً بل ومستحيلاً، بينما كان المجتمع البشريّ في عصر ظهور نبيّ الإسلام قد خلَّف وراءه مرحلة الطفولة ودخل مرحلة النضج الفكري. كان الطفل بالأمس يحتاج إلى أُمّ تأخذ بيده وتعلمه المشي ولم يكن قادراً على الوقوف على قدميه والاستفادة من عقله... ولم يكن عبثاً أن نبيَّ الإسلام كان يقاوم إصرار المنكرين والمعاندين بإتيان المعجزات

والأعمال غير الطبيعية، وكان يستند في إثبات حقانية دعوته على الاستدلال العقلي والتجريبي والشواهد التاريخية... ورغم إصرار المنكرين وعنادهم، فإن نبيّ الإسلام كان يمتنع بإذن الله عن الاتيان بمعجزات نظير معجزات الأنبيّاء السابقين، وكان يعتمد على القرآن وحده كمعجزة لا ولن يكون لها نظير. فالقرآن، معجزة خاتم النبيّين، هو دليل آخر على ختم الرسالات. وهو كتاب يحتوي على حقائق عالم الخلق وتعاليم الحياة المتناسقة من جميع الجهات. هو معجزة تناسب مستوى الإنسان الناضج العاقل، وليس الطفل المتمسك بالأوهام والتخيّلات الذهنية»[1].

ويقول آخر:

«الجوّ الذي كان يتنفس فيه الإنسان، لطالما كان مملوءًا بالأوهام والخرافات وخوارق العادة، ولم يكن ثمة ما يؤثر فيه وعليه إلى «ما يخالف العقل والإحساس». من هنا نجد في التاريخ أن البشرية كانت تبحث دائماً عن «المعجزة» وكانت مشغوفة بـ «الغيب». وتشتد هذه الحساسية تجاه كل ما هو غير محسوس و«غير معقول» في الأوساط الأبعد عن التحضّر. فهم كلما كانوا أقرب إلى «الطبيعة» كانوا أشوق إلى «ما وراء الطبيعة». و«الخرافة» هي المولود الناقص لهذه الحقيقة. فإنسان الصحراء يبحث دائماً عن «المعجزة»، فعالَمه مليء بالأرواح والأسرار العجيبة. فروح الإنسان التراثي لا تتأثر بشي إلا حينما يملأ عينيه «الإعجابُ» بشيء مّا، ويرى ذلك ساحراً ورمزيّاً وغامضاً. من هنا نلاحظ أنه، ليس الأنبيّاء فحسب، بل وأيضاً ملوك وحكماء كل طائفة كانوا يتذرعون بأمور غير عادية لتبرير وجودهم. وفي هذا الإطار، كان على الأنبيّاء الذين تقوم رسالتهم على أساس «الغيب»، أن يأتوا بـ «المعجزة» أكثر من غيرهم، ذلك لأن المعجزات كانت أشد تأثيراً في توطيد إيمان الناس في تلك العصور من المنطق والعلم والحقيقة المحسوسة الواقعية.

«أما قصة الرسول محمد ﷺ فهي تُستثنى من هذه القاعدة، فهو يعلن أن

(1) دكتور حبيب الله پايدار، «فلسفه تاريخ از نظر قرآن» [فلسفة التاريخ من وجهة نظر القرآن]، ص15-16.

معجزته «الكتاب» وذلك في مجتمع لم يكن في أكبر حواضره التجارية والمدنية أكثر من سبعة أشخاص يجيدون «الكتابة» ولم يكن يفكر أبناؤه في شيء غير «الفخر والسيف والبضاعة والإبل والابن»، وهذا الأمر هو معجزة بحدّ ذاته. الكتاب! في بلد لا يعرف التاريخ فيه أثراً لكتاب واحد! ورَبُّ هذا الكتاب يُقسم بـ «القلم» و«ما يسطرون»، وذلك في وسط يرى القلم أداة عمل لعدد من الرجال الضعاف والجبناء.. وهذا هو «المعجزة»... والكتاب هو المعجزة الوحيدة التي يمكن مشاهدتها على الدوام، ويمكن أن يجدها الإنسان أكثر إعجازاً كل يوم، وهو المعجزة الوحيدة التي كلما كان الإنسان أكثر عقلاً وعلماً. وكلّما كان المجتمع أكثر تقدماً وتحضراً، كان فهمه لإعجازها أعمق وأصدق، هو المعجزة الوحيدة التي لا يتوقّف الإيمان بها على المؤمنين بالأمور الغيبية فحسب. بل كل عالم يعترف بإعجازها، هو المعجزة الوحيدة التي لم تأتِ للجهلة، بل للمتنوّرين،... هو المعجزة الوحيدة، وخلافاً لسائر المعجزات، لم تأتِ لإثارة حِسِّ الإعجاب والإعجاز لمشاهديها، وليست مقدمة ووسيلة للإيمان بالرسالة، بل هي لتعليم المؤمنين وتربيتهم، هي هدف القبول، هي الرسالة، وبالتالي فإن معجزة محمّد ﷺ لم تكن من نوع الأمور «غير البشرية» وإن كانت عملاً غير بشري، ومن هنا، وخلافاً لمعجزات السابقين التي كانت مجرد عامل لـ «إيمان» الناس -وذلك في حدود ضيقة لا يتعدى إطار الذين يشاهدونها- ولم تكن لها أيّة فائدة أخرى، فإن معجزة النبيّ محمد ﷺ كانت من فصيلة أرقى المواهب الإنسانية، وبإمكانها أن تكون بمثابة أرقى الدروس للإنسان.. درس هو في متناول يده على الدوام... يسعى النبيّ محمد ﷺ ليعطف إهتمام الناس من الأمور غير العادية والكرامات وخوارق العادات إلى الأمور العقلية والمنطقية والعلمية والطبيعية والإجتماعية والاخلاقية، وأن يحوِّل اتجاه حساسيتهم من «العجائب والغرائب» إلى «الحقائق والواقعيات». وليس هذا عملاً سهلاً، خاصة بين أُناس لا يستسلمون إلا لما هو غير طبيعي. إنه لأمر عجيب أن يعلن النبيّ عن نبوّته، ويدعو الناس لرسالته الإلهية، وفي الوقت نفسه يعترف رسميّاً بأنه لا يعلم الغيب ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: 50]، وعلاوة على القيمة

الإنسانية لهذا الموقف فإن المثير جدّاً هو المصداقية الاستثنائية التي تُلاحظ فيه، مما يبعث كل قلب على التقديس، وكل فكر على التعظيم والتمجيّد. يقولون له: لو كنت نبيّاً فأخبرنا عن أسعار البضائع مستقبلاً حتى نربح في تجارتنا. فيقول له القرآن الكريم: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]. ولكن كيف يتجلى النبيّ في عيون أهل الصحراء وهو لا يخبر عن الغيب، ولا يحادث الأرواح والملائكة والجن، ولا تصدر منه كل يوم كرامة ومعجزة؟. فمحمد ﷺ يدعوهم إلى التفكير في الكائنات، وإلى الطُهر والمحبة والعلم والوفاء وفهم معنى الوجود والحياة ومصير الإنسان، بينما هم يطالبونه تباعاً بالمعجزة والإخبار عن الغيب والكرامات، ويقول الله ﷻ عن لسانه وبلهجة تُنبيّ وكأن هذا الأمر لا يصدر منه إطلاقاً: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[2].

وتستند هذه الفئة في أغلب الحالات إلى الآيات 90 ـ 93 من سورة الإسراء التي تقول:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

فهذه الفئة تقول إن الآيات المذكورة تدل على أن المشركين كانوا يطالبون النبيّ ﷺ بمعجزة (غير القرآن)، وكان النبيّ ﷺ يمتنع عن ذلك.

ونحن إذ نؤيد بعض الموضوعات التي نقلناها، خاصة ما يتعلق بمزايا الكتاب ـ المعجزة بالقياس إلى سائر المعجزات، نأسف لأننا لا نستطيع الموافقة على كل الأفكار المذكورة، بل وإن فيها أموراً عدة تجب مناقشتها:

1 ـ القول بأن نبيّ الإسلام لم يكن عنده معجزة أُخرى غير القرآن، وأنه

(2) علي شريعتي، «اسلامشناسى» [دروس حول الإسلام]، ص502-506.

كان يرفض المطالبة لهذا النوع من المعجزات، والدليل على ذلك الآيات التي ذُكرت من سورة الإسراء.

2 ـ ما هي قيمة المعجزة وما هو دورها؟ هل كانت المعجزات والأعمال الخارقة أموراً تتناسب مع مرحلة الطفولة البشرية التي لم يكن فيها دور للعقل والمنطق، وأن كل شخص، حتى الحكماء والملوك كانوا يبررون وجودهم بمثل هذه الأمور، وكان الأنبيّاء أيضاً مضطرين لتبرير أنفسهم بمثل هذه الأمور وإقناع الناس بها، وأن النبيّ محمد ﷺ الذي كانت معجزته الكتاب هو الاستثناء من هذه القاعدة، فقد برر نفسه بالكتاب، وفي الحقيقة، بالعقل والمنطق.

3 ـ أن نبيّ الإسلام ﷺ يعمل على عطف اهتمام الناس من الأمور غير العادية والكرامات والأعمال الاستثنائية نحو المسائل العقلية والمنطقية، وتحويل حساسيتهم من «العجائب والغرائب» إلى «الواقعيات والحقائق».

والآن لنبحث هذه الموضوعات الثلاث:

أولاً: ألم يكن لنبيّ الإسلام معجزة غير القرآن؟ إن هذا الأمر، إضافة إلى كونه مردود من منظار التاريخ والسنّة والأحاديث المتواترة، فإنه يخالف نص القرآن الكريم. فشَقّ القمر ذُكر في القرآن، ولو افترضنا أن شخصاً يقول بتأويل وتفسير هذه المعجزة (وهي لا تقبل التأويل)، فكيف يمكن تفسير قصة المعراج وآية الإسراء التي تقول صراحة:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الاسراء: 1].

ونقرأ في سورة التحريم قصة إسرار النبيّ ﷺ لبعض أزواجه سراً، والتي أباحت به فأنبأه الله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3] أليس هذا إخبار عن الغيب؟ وأليست هذه معجزة؟

أما ما جاء في الآيات 90 ـ 93 من سورة الإسراء وبعض الآيات الأخرى

المشابهة التي يستند إليها هؤلاء فهي شيء آخر، فالمسألة هناك ليس من قبيل المطالبة بالمعجزة بمعنى «الآية» و«البيّنة» من قبل جماعة مترددة بين الكفر والإيمان وهي تبحث عن دليل وبرهان وبيّنة. إن هذه الآيات والآية 50 من سورة العنكبوت ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ توضّح لنا منطق المشركين الخاص في مطالبتهم بالمعجزة، ومنطق القرآن الخاص في فلسفة معجزات الأنبيّاء.

ففي الآيات 90 ـ 93 من سورة الإسراء يفتتح المشركون كلامهم بعبارة: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا... أيّ أننا لن نؤمن لمصلحتك ولن ندخل في جماعتك إلا إذا قمت بالمقابل بأعمال لمصلحتنا.. أن تفجر لنا في أرض مكة القاحلة الجافة ينبوعاً (فهي إذن مقايضة) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو يكون لك بيت مملوء بالذهب والفضة (حيث نستفيد نحن منها أيضاً) ـ وهذه مقايضة أخرى أيضاًـ أو تسقط علينا السماء كسفاً كما زعمت أن ذلك يحدث يوم القيامة، أيّ تأتي بالعذاب والموت ونهاية المطاف، وليس هذا مطالبة بالمعجزة.

أو تأتي بالله والملائكة وتحضرهم عندنا، أو ترقى أنت إلى السماء وتحمل إلينا رسالة خاصة لنا. هذه أيضاً مقايضة أخرى،إلا أنها ليست مقايضة مادية، وإنما هي معنوية من باب الوجاهة والتفاخر، دون الالتفات إلى استحالة الأمر.

فالمشركون لم يقولوا: لن نؤمن بك... والذي يعني إننا لن نؤمن بك وبرسالتك ما لم تأت لنا بمعجزة وآية، بل قالوا: لن نؤمن لك... وهو يعني أننا لن ننتمي لمصلحتك وإلى جماعتك ولن نلتحق بفئتك، أيّ انتماء وتصديق مصلحي، وصفقة عقائدية. فهناك فرق بين عبارة «آمن به» وعبارة «آمن له» وقد استنبط علماء أصول الفقه هذه النكتة الدقيقة من الآية 61 من سورة التوبة حول الرسول الكريم ﷺ التي تقول: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾. إضافة إلى ذلك فإن المشركين عبروا عن مطاليبهم بإزاء هذا التأييد والتصديق المصلحيّ بعبارة «تفجر لنا من الأرض ينبوعاً» أيّ لمصلحتنا، وواضح أن هذا ليس من قبيل طلب «البيّنة» والدليل والمعجزة، إنما هو طلب «الأجر»

فالرسول ﷺ إنما يهدف إلى صياغة المؤمنين حقّاً، وليس إلى شراء الرأي والعقيدة بقيمة المعجزة.

فالكاتب الكريم نفسه يكتب أن المشركين قالوا للنبيّ: إذا كنت نبيّاً حقّاً فأخبرنا إذن عن الأسعار المستقبلية للبضائع حتى نربح في تجارتنا. وواضح أن هذا ليس طلباً للمعجزة بمعنى «البيّنة» لاكتشاف الحقيقة، بل هو استخدام الرسول كوسيلة للربح الماديّ. ومن الطبيعي أن يكون ردّ الرسول أنه لو كنتُ أعلمُ الغيبَ -فيما يرتبط بمثل هذه الأمور- لاستكثرت الخير لنفسي. ولكن المعجزة والغيب ليسا وسيلتين لهذه الأمور، ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

كان المشركون يتصورون أن أمر المعجزة بيَدِ النبيّ نفسه، فهو يستطيع أن يأتي بها متى، وكيف، ولأي هدف شاء، ولذلك فإنهم كانوا يطلبون منه أن يفجّر لهم ينبوعاً، أو أن يكون له بيت من زخرف، أو أن يخبرهم بأسعار البضائع مسبقاً. بينما المعجزة هي كالوحي ترتبط بالطرف الآخر وليس بالنبيّ، فكما الوحي ليس تابعاً لرغبة النبيّ، بل هو أمر يأتي من قبل الله -عزّ وجّل- ويؤثر في النبيّ، كذلك المعجزة هي أيضاً أمر من الله يؤثر في النبيّ وتجري على يديه، وهذا هو معنى الآية 50 من سورة العنكبوت التي أساء استخدامها القساوسة: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومعجزة الإخبار عن الغيب هي كذلك أيضاً. فمن حيث الجانب الشخصي فهو لا يعلم الغيب: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ ولكن من حيث أنه يقع تحت تأثير الغيب وهيمنته وما وراء الطبيعة فهو يخبر عن الأسرار والغيوب، وإذا ما سُئل: كيف عرفت؟ قال: نبّأني العليم الخبير.

وعندما يقول النبيّ ﷺ إنني لا أعلم الغيب و﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ فهو يريدّ أن يرد على منطق المشركين، وأن علمه بالغيب إنما هو في إطار المعجزة ولهدف خاص وبواسطة الوحي الإلهي. فلو كان علم الغيب بيدي وكان بالإمكان استخدامه لكل هدف وللربح المادي، فكنت

أستكثر الخير لنفسي بواسطته بدل إخباركم عن أسعار البضائع مسبقاً.

يقول القرآن الكريم في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: 26-27]. ولا شك أن النبيّ الكريم ﷺ هو أحد الرسل الذين ارتضاهم الله. ثم إن القرآن ذكر في آيّات كثيرة معجزات الرسل السابقين، كمعجزات إبراهيم وموسى وعيسى، فكيف يمكن أن يقول النبيّ حينما يطالبونه بالمعجزة كما طالب السابقون أنبيّاءهم بالمعجزات فاستجابوا لهم، كيف يقول: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾. ألم يكن يحق لهم حينئذٍ أن يقولوا له: ألم يكن الأنبيّاء السابقون الذين تنقل لنا معجزاتهم بهذا التفصيل، بشراً، أم أنهم لم يكونوا رسلاً؟ فهل يمكن أن يحتوي القرآن على هذا التناقض الصريح؟ وهل من الممكن أن المشركين لم يلتفتوا إلى هذا التناقض؟

فلو كان منطق المتنورين صحيحاً، كان على النبيّ ﷺ بدل القول: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، أن يقول: سبحان ربي إنني خاتم النبيّين. وإنني استثناء من قاعدة الرسل الآخرين، فلا تطالبوني بما كانوا يطالبون أنبيّاءهم، لا أن يقول: إنني رسول كسائر الرسل.

إذن، يتضح لنا أن ما كان يطلبه المشركون من النبيّ ﷺ لم يكن معجزة بمعنى الآية والبيّنة بهدف معرفة الحقيقة، حيث يحق للباحثين عن الحقيقة أن يطالبوا من يدعي النبوّة بها، وإنما كان أمراً آخر لم يكن من اهتمام الأنبيّاء عموماً أن يستجيبوا لهذا النوع من الطلبات. لهذا فإن النبيّ ﷺ قال: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أيّ إن ما تطلبونه ليس هو ما يطلبه الباحثون عن الحقيقة من الأنبيّاء والرسل حيث يستجيبون لهم، وإنما تطلبون شيئاً لآخر، هو الصفقة والمقايضة. إنكم تتمسكون بي وتهملون الإيمان بالله وتريدونني أن أستجيب لمطالبكم مستقلاً عن الله، إنه نوع من التكبر والذاتية وتعزيز الامتيازات لأنفسكم دون الآخرين إنه مطالبة بمجموعة من الأمور المستحيلة و...

إنني اعترف بأن العامّة من الناس يرغبون في اختلاق المعجزات، ليس

للنبيّ والإمام فقط، بل لكل قبر وحجر وشجر، ولكن هل يعني هذا أن ننكر وجود أيّة معجزة أو كرامة للنبيّ ﷺ غير القرآن الكريم؟

ثم إن هناك فرق بين المعجزة والكرامّة، فالمعجزة تعني البيّنة والآية الالهية لإثبات مسؤولية إلهية، وهي مقرونة بالتحدي ولها هدف إلهي، ولذلك فهي تتحدد بظروف معَيّنة. أما الكرامة فهي أمر خارق للعادة ناجم عن القوة الروحية والقداسة النفسية لإنسان كامل أو شبه كامل ولا يكون لإثبات هدف إلهي خاص، وكثيراً ما يحدث هذا الأمر، وبامكاننا القول إنه أمر عادي ولا يتقيد بشروط وظروف معَيّنة. فالمعجزة هي لسان الله الذي يؤيد شخصاً مّا، ولكن الكرامة ليس لها هذه الخصوصية.

ثانياً: يقسّم المنطقيون والفلاسفة العناصر التي تُستخدم في أيّ استدلال من حيث القيمة والأثر العملي إلى عدة أنواع: فلبعض تلك العناصر قيمة برهانية، فلا تترك مجالاً للتشكيك العلمي والعقلي، كالمواد والعناصر التي يستخدمها عالم رياضي في استدلالاته. وللبعض الآخر قيمة إقناعية، كالمواد والعناصر التي يستخدمها في الأغلب أهل الخطابة في أحاديثهم، فلو تم التدقيق فيها لربما وقع التشكيك فيها، ولكن ما لم يتم التدقيق فيها فإنها توجد عمليّاً حركةً مّا؛ فهي للبعض مجرد قيمة تهييجية وعاطفية، وللبعض الآخر قيمة أخرى.

وكما يعتبر القرآن آثار الخلق «آيات الله» وأدلة قطعية لا تقبل التشكيك على وجود الخالق، فكذلك يعد معجزات الأنبيّاء بمثابة الآيات والبيّنات والأدلة القاطعة والحجّة المسلَّمة العقلية والمنطقية على صدق من يأتي بها.

وقد تحدث القرآن عن المعجزة بالتفصيل، واعتبر مطالبة الناس بها من الرسل قبل أن يؤمنوا بهم، أمراً معقولاً ومنطقيّاً. وقد ذكر بالتفصيل استجابة الرسل العملية لهذه الطلبات في إطار الآية والبيّنة، أيّ ضمن الحدود المعقولة والمنطقية التي تكون شاهداً على صدقهم، وليس في إطار «اقتراح» ورغبة الذين كانوا يريدون الأنبيّاء ومعاجزاتهم وسيلة إلى الاسترباح أو اللهو والتفرج...، ولا نجد في القرآن أيَّة إشارة إلى كون المعجزة دليل إقناعي

للأذهان الساذجة والجاهلة وبما يتناسب مع مرحلة الطفولة البشرية، بل يطلق عليها عبارة «البرهان»[3].

ولأن معجزة خاتم النبيّين هو الكتاب، وهو من عنصر الكلام والتعبير والعلم والثقافة، فهي معجزة خالدة، وبشكل تدريجي تتضح وجوه الإعجاز في هذا الكتاب ـ المعجزة. واليوم قد انكشفت للناس عجائب من القرآن الكريم لم تكن مكشوفة من ذي قبل. ويستوعب العلماء معجزة الكتاب أكثر من العامّة من الناس، وقد أصبحت معجزة خاتم النبيّين من نوع الكتاب لكي تتناسب مع مزايا مرحلة ختم النبوّة، ولكن...

ثالثاً: هل كانت هذه المعجزة كتاباً لكي تعطف أيضاً اهتمام الإنسان من الغيب إلى الشهود، من اللامعقول إلى المعقول والمنطقي، ومن ماوراء الطبيعة إلى الطبيعة؟ وهل كان يسعى النبيّ محمد ﷺ لكي يحوِّل توجه الناس من الأمور غير العادية، والكرامات، والقضايا الخارقة للعادة إلى المسائل العقلية والمنطقية والعلمية والطبيعية والاجتماعية والأخلاقية، ويغيِّر حساسيتهم من «العجائب والغرائب» إلى «الواقعيات والحقائق»؟ لا يبدو أن هذه النظرية صحيحة. إذ لو كان الأمر كذلك وجب أن نقول إن جميع الأنبيّاء، دعوا إلى الغيب بينما النبيّ محمد ﷺ دعا إلى الشهود. إذن لماذا اهتمت مئات الآيات القرآنية بهذه «العجائب والغرائب»؟

ولا شك أن إحدى المزايا الأساسية للقرآن هي الدعوة إلى التدبّر في عالم الطبيعة والشهود باعتباره من آيّات الله، ولكن لا تعني الدعوة إلى التدبر في الطبيعة، تحويلَ الأفكار عن الإهتمام بكل أمر غير طبيعي، بل العكس صحيح، فالدعوة إلى التدبر في الطبيعة باعتبارها «آيات» هي بمعنى العبور إلى ماوراء الطبيعة. ففي المنظار القرآني يمرّ طريق الغيب عبر الشهود، وطريق ماوراء الطبيعة عبر الطبيعة، وطريق المعقول عبر المحسوس.

---

(3) يراجع: محمد حسين طباطبائي. **تفسير الميزان**، تفسير الآية 23 من سورة البقرة. وكتاب محمد تقي شريعتي «وحي ونبوت» [الوحي والنبّوة]، ص214.

وتنبع أهمية عمل النبيّ محمد ﷺ من أنه كما كان يدعو إلى التدبر في الطبيعة والتاريخ والمجتمع، وكان يدفع الفئات التي لم تكن تستسلم إلا لما هو غير طبيعي، إلى الاستسلام للعقل والمنطق والعلم. كذلك كان يعمل على تعريف الفئات التي تحمل شعار العقل والمنطق ولا تقبل إلا بكل ماهو طبيعي ومحسوس، على منطق أسمى وأرقى.

إن الميزة الأساسية للعالَم الذي يرسمه الدين بشكل عامّ ـ والإسلام بشكل خاصّ ـ على العالَم الذي ترسمه العلوم والفلسفات البشرية المجّردة هي، حسب ما يقول ويليام جيمز، أن عالَم الدين يحتوي على عناصر إضافة إلى العناصر المادية، وعلى قوانين أرقى من القوانين البشرية.

ولا يريد القرآن أن يجعل الاهتمام بالطبيعة والمحسوسات بديلاً عن الاهتمام بما وراء الطبيعة والأمور غير الحسّية. بل تكمن أهمية القرآن في أنه بينما يوجّه الناس إلى الطبيعة ـ وحسب التعبير القرآني «الشهادة» ـ يجعل الإيمان بالغيب، في الوقت نفسه، في أولويات دعوته: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 1-3].

فكيف يمكن أن يركز القرآن على صرف اهتمام الناس عن تلك الأمور، بينما يعتبر هو من نوع «العجائب والغرائب» أيّ المعجزة، إضافة إلى أنه يذكر أكثر من مائة آيّة في هذا المجال؟

إنني لا أفهم ماذا تعني هذه العبارة: أن «الكتاب [القرآن] هو المعجزة الوحيدة التي لا ينحصر الاعتقاد بها في المؤمنين بالأمور الغيبية».

ما المقصود بالاعتقاد؟ الاعتقاد بأنه كتاب يحتوي على موضوعات رفيعة المستوى؟ أم الاعتقاد بأنه معجزة؟ فالاعتقاد بأنه معجزة بمعنى الآية والبيّنة الإلهية، يساوي الاعتقاد بالغيب، فكيف يمكن أن يكون الشخص معتقداً بالغيب وغير معتقد به في الوقت نفسه؟

وقيل «إن معجزة محمد ﷺ ليست من نوع الأمور غير البشرية، رغم أنها عمل غير بشري». هذه العبارة هي الأخرى يكتنفها الغموض، ويمكن تفسيرها بصورتين:

التفسير الأول: تعني العبارة أن معجزة محمد ﷺ باعتبارها من الوحي وليست من كلام النبيّ نفسه، فهي إذن عمل غير بشريّ، ولكن في الوقت نفسه، فهو من نوع الأمور البشرية، وهو عمل عادي من قبيل سائر الأعمال البشرية.

ويبدو أن المقصود ليس هذا المعنى، ذلك لأنه لا تكون للقرآن حينئذٍ أيّة ميزة على الكتب السماوية الأخرى. فجميع هذه الكتب تُعتبر عملاً غير بشري بسبب صدورها من مبدأ الوحي، ولكنها في الوقت نفسه تُعتبر من نوع الأمور البشرية لأنها لا تحمل أيّ وجه خارق للعادة.

تماماً، كما توجد عندنا مجموعة من «الأحاديث القدسية» المعروفة والتي هي كلام الله المُنزّل عن طريق الوحي أو الإلهام، ولكنها لا تُعتبر معجزة ومن نوع الأمور غير البشرية.

إن ما يميز القرآن عن سائر الكتب السماوية والأحاديث القدسية هو أنه عمل غير بشري، أيّ أنه وحي مُنزّل، وهو في الوقت نفسه من نوع الأمور غير البشرية أيضاً، أيّ يأتي ضمن الإعجاز والطاقة فوق البشرية. ولهذا نقرأ في القرآن الكريم عن نفسه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

التفسير الثاني: أن العبارة المذكورة تعني أن معجزة محمد ﷺ، وخلافاً لمعجزات سائر الأنبيّاء التي لم تكن من نوع الأعمال والأمور البشرية كتبدّل العصا إلى حية تسعى، وإحياء الأموات، هي من نوع الأعمال البشرية، ذلك لأنها من نوع الكلام والتعبير والعلم والثقافة، ولكنها عمل غير بشري، أيّ من مستوى يفوق المستوى البشري إذ تنبع من قوة غيبية ومما وراء الطبيعة. وإذا كان هذا هو المقصود ـ وينبغي أن يكون ـ فهو اعتراف بالغيب وبما وراء الطبيعة، وبخرق العادة، وبالتالي بما هو من «العجائب والغرائب». إذن لماذا نفسر المعجزة والممارسات الخارقة للعادة كتفسيرنا للخرافة والأمور غير المعقولة؟ ألم يجب علينا منذ البدء أن نفرّق بين المعجزة وخرق العادة، وبين

الخرافات والأوهام، حتى لا يفهم الأشخاص ذوو الثقافة السطحية كلامنا على غير مراده؟ لماذا نغيّر الجملة الشهيرة القائلة بأن «كتاب رسول الإسلام معجزة» إلى الجملة القائلة: «معجزة النبيّ كتاب» حتى يقع كلامنا ضحية التحليلات والتفسيرات السلبية؟

وقد نشر الكاتب المحترم[4] مؤخراً مقالة تحت عنوان «القرآن والكمبيوتر» في مجلة «فلق» التي يصدرها طلبة كلية الآداب بطهران، يمكن اعتبارها تصحيحاً لنظرته إلى المعجزة، ومؤشراً على تكامله الفكري التدريجي.

يقترح الكاتب في هذه المقالة تبديل كلمات القرآن إلى رموز كمبيوترية واستخدام هذا المظهر العظيم للحضارة البشرية لاكتشاف حقائق القرآن، وهو بالطبع اقتراح إيجابي وجيّد. ثم يشير إلى بعض ما أنجزه عدد من العلماء المصريين في هذا المجال وإلى ما أنجزه أو ما يسعي إلى انجازه بعض المهندسين الإسلاميين الإيرانيين أيضاً، ثم يقدم بحثاً شيّقاً في هذا المجال تحت عنوان «كيف يمكن إثبات معجزة القرآن؟»[5]، ويشير ضمنيّاً إلى كتاب قيّم جدّاً صدر مؤخراً وهو: «مسيرة تطور القرآن»[6]، ويثني على الاكتشاف القيم لمؤلفه الذي أثبت فيه أن قصر أو طول الآيات القرآنية وعدد الكلمات الموحى بها إلى الرسول الأكرم ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً تتبع خطاً بيانياً دقيقاً ومنظماً وخارقاً للعادة. ثم يضيف هو قائلاً:

«يمكننا من خلال تحليل طول عبارة أيّ متحدث في العالم أن نحدد التاريخ السنوي لأداء كل جملة من كلامه؟ خاصة حينما لا يكون هذا النص كتاباً من نوع الكتابات العلمية أو الأدبية التي يعكف المؤلف على كتابتها أو إنشادها في مدة معَيّنة وبشكل متواصل، بل هي كلمات جرت على لسان شخص خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياته العاصفة، وبالذات حينما لا يكون كتاباً ألّفه كاتبه في موضوع واحد ـ أو حتى في مجال معَيّن ـ، بل هو

(4) إشارة إلى الدكتور علي شريعتي (المترجم).
(5) «إعجاز قرآن را چگونه ميتوان إثبات كرد».
(6) الكتاب للمهندس مهدي بازرجان واسمه بالفارسية: «سير تحول قرآن» (المترجم).

مجموعة من القضايا المتنوعة التي جرت متدرِّجة على لسان القائد وحسب حاجة المجتمع أو ردّاً على تساؤلات مطروحة، أو حلاً لحوادث أو مشكلات مطروحة خلال مسيرة نضالية طويلة ثم تم جمعها وترتيبها»[7].

اتخذنا هذا القرآن مهجوراً!

نحن نعتب اليوم على الجيل الجديد لأنه لم يتعرف على القرآن، لماذا لم يتعلمون القرآن في المدارس، بل وحتى حينما يصلون إلى الدراسة الجامعية فإنهم لا يجيدون قراءة القرآن؟ وبالطبع إن هذا يبعث على الأسف، ولكن علينا أن نسأل أنفسنا أولاً: ما الذي فعلناه نحن في هذا المجال حتى الآن؟ هل نتوقع أن يتعرف الجيل الشاب على القرآن بشكل كامل من خلال هذا المستوى من الفقه والشرعيات والقرآن الموجود في المدارس؟

عجباً، فإن الجيل القديم قد ترك القرآن وجعله مهجوراً، ولكنه يعتب في الوقت نفسه على الجيل الجديد لأنه غير منفتح على القرآن. فالقرآن مهجور في أوساطنا، ولكننا نطالب الجيل الناشئ أن يتمسك به. والآن أُثبت لكم كيف أن القرآن أصبح مهجوراً بيننا[8].

لو درس شخص علم القرآن، أيّ تدبّر في آياته كثيراً، وعرف تفسيرها بشكل كامل، فما حظ مثل هذا الشخص من الاحترام في أوساطنا؟ الجواب: لا شيء!.

أما لو درس شخص كتاب (كفاية الأصول)[9] للشيخ كاظم الخراساني، فإن ذلك سيجعله شخصاً محترماً وجيهاً. إذن، فالقرآن مهجور فيما بيننا، وبسبب هذا الإعراض عن القرآن فقد أُصِبنا بهذا التخلف والهوان. حتى لتشملنا شكوى رسول الله ﷺ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

---

(7) مطهري، جهانبيّنى [الرؤية الكلية]، ص180-195.

(8) يقصد المؤلف في أوساط علماء الدين وطلبة الحوزات العلمية والمدارس الشرعية.

(9) احد الكتب القديمة في أصول الفقه، لا يزال يُدرَّس في مدارس الحوزات العلمية وهو كتاب يتميز بالعبارات المعقدة التي يبذل الطلاب جهداً كبيراً في فك رموزها وألغازها. (المترجم).

يقول أحد الإخوة الذي كان قد زار العراق منذ زمن أنه التقى آية الله الخوئي[10] في النجف الأشرف، فسأله: لماذا تخلى سماحته عن إلقاء محاضرات تفسير القرآن التي كان يلقيها في السابق؟ [كان السيد الخوئي يلقي دروس التفسير قبل سنوات في النجف، وقد طبع قسم منها] أجاب: إن هناك مشكلات وعقبات في تدريس التفسير. فقال له: لقد واصل العلامة الطباطبائي [صاحب تفسير الميزان] هذا العمل في قم، وبذل أكثر أوقاته في هذا المجال، فما الذي حدث؟ أجاب السيد الخوئي: إن عمل العلامة كان نوعاً من «التضحية». أيّ أن العلامة الطباطبائي قد ضحّى بعمره في هذا المجال وبشخصيته الاجتماعية- وهو كلام صادق.

غريب حقاً، لو أن شخصاً قضى عمره في العلوم القرآنية في أهم مراكزنا الدينية فإنه يواجه ألف مشكلة ومشكلة، ويفقد كل شيء: الخبز والمعيشة، والوجاهة والاحترام، ولكنه لو أنفق عمره في كتب علم الأصول مثل كتاب (كفاية الأصول) فإنه يحظى بكل شيء. ولذلك فإنك تجد الآلاف من الأشخاص يتقنون كتاب الكفاية بكل شروحه وردوده، بينما لا تجد شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة. وإذا ما سألت أيّ طالب عن آية من القرآن فإنه يقول يجب مراجعة التفاسير. والأعجب هو أن هذا الجيل الذي يقف هذا الموقف من القرآن، يتوقع من الجيل الناشئ أن يقرأ القرآن، ويفهمه، ويعمل به.

فإذا لم يكن الجيل القديم قد انحرف عن القرآن، فإن الجيل الجديد لم يكن لينحرف عنه أيضاً، علينا أن نعترف في النهايه بأننا تشملنا لعنة النبيّ ﷺ والقرآن. يقول الرسول حول القرآن: «إنه شافع مشفَّع، وماحل مصدّق» فشفاعته عند الله تُقبل، وشكواه ممن جفاه تُسمع.

وقد واجه كلا الجيلين الجديد والقديم، القرآن بالجفاء، فقد جفاه الجيل القديم أولاً، ثم جفاه الجيل الجديد[11].

---

(10) أحد مراجع الشيعة المعاصرين في العراق [1899-1992].

(11) مطهري، ده گفتار [المقالات العشرة] ص188-190.

خطر تحريف النصوص الدينية

يشير القرآن الكريم إلى الذين يحرّفون الكلام عن مواضعه ويلومهم على ذلك[12]. وينقسم التحريف إلى نوعين:

النوع الأول: هو إدخال الزيادة أو النقص على كلام أو مكتوب. ونجد أحياناً بعض الخائنين يتلاعبون في آثار الآخرين فينقصون منها شيئاً أو يضيفون إليها شيئاً، وقلّما تجد بين الكتب القديمة ما ظل بعيداً عن يد الاعتداء والتحريف، حتى دواوين الشعراء طالها التحريف حيث حُذفت منها أو أضيفت إليها أشعار، أو غُيّرت فيها كلمة أو جملة بحيث أُشكل الأمر على الباحثين فيما بعد. وهذا التحريف هو «تحريف لفظيّ».

النوع الثاني: هو «التحريف المعنويّ» وفي هذا التحريف لا يتم التلاعب بالألفاظ زيادة أو نقصانا، وإنما يذهب الشخص في التفسير والتحليل والتأويل بعيداً عن المعنى الحقيقي وينحرف عنه انحراف من قام بتغيير الألفاظ. وهذا أيضاً نوع من الخيانة. فالخيانة قد تكون في المال أو النفس أو في كرامة الإنسان وشرفه، وقد تكون في الفكر والرأي والمعنى. فإذا ما أبدى شخص فكرة أو رأياً فمن حقّه علينا أن ننسب إليه كلماته نفسها أو كتابته، وأن لا نتدخل ولا نغيّر أيضاً في معنى كلامه أو كتابته. ولا يكون التحريف أو التغيير مهماً في الأقوال والكتابات العادية ولكنه مهم جداً ومؤثر في الأقوال والكتابات التي تُعد من وثائق البشرية. فمثلاً قد يقوم شخص بتحريف شعر شاعر [فهذا ليس مهمّاً جدّاً] ولكن قد يطال التحريف كتاباً سماويّاً مقدّساً، أو كلمة سماوية، أو حديث نبويّ أو رواية لإمام حيث تشكل هذه العناصر وثائق مهمة للملايين من أبناء البشر، فهذا ذنب لا يُغتفر.

هناك مبحث يوجد في علم المنطق يُسمى «صناعة المغالطة». وفي هذا المجال يشرح المنطقيون ثلاثة عشر نوعاً من المغالطة يمكن استخدامها لخداع أفكار الآخرين، ويقولون إن أفضل طريق لكي يتجنب الإنسان الانخداع بهذه

---

(12) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

المغالطات هو التعرف عليها ودراستها، لذلك على الطالب الباحث عن الحقيقة أن يدرس هذه الأساليب تماماً كالطبيب الذي يدرس الأمراض وأعراضها.

كان عمّار بن ياسر من أصحاب الرسول ﷺ الكرام. وكان من أوائل المسلمين حين أسلم هو وأبوه وأمّه في مكة ولاقوا، بسبب ذلك، العذابَ من المكّيين. واستشهد والدا عمّار تحت التعذيب في مكة، أما هو فقد ظل سليماً وأفلح في الهجرة إلى المدينة. وفي الأيام الأولى لدخول الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة خطط أرضاً وعيّنها لبناء مسجد عليها، وفي تلك الأيام تعاون المسلمون على إقامة جدار المسجد، وهو المسجد الذي عُرف فيما بعد بـ«مسجد النبيّ». . . وكان عمّار أحد الذين ساهموا في بناء المسجد، وأُبلي في عملية البناء بلاءً حسناً. في هذا الوقت وَجّه الرسول الكريم خطابه لعمّار وأمام جماعة من المسلمين قائلاً له: «ويكون آخر شرابك من الدنيا حياض من لبن، وتقتلك الفئة الباغية». وكانت تعني هذه العبارة أن مقتل عمّار سيكون على يد فئة باغية من المسلمين.

كما كانت كلمة الرسول ﷺ تشير إلى الأمر الوارد في القرآن حول اقتتال طائفتين من المسلمين وموقف الإنسان المسلم من هذا الحدث: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]. وفي الحقيقة كانت كلمة الرسول ﷺ تحذيراً للمسلمين من أن هذا الحدث سيقع قريباً وقبل نهاية حياة عمّار.

وانتشر هذا الخبر بين المسلمين. وأصبح وجود عمّار بمثابة المقياس ليوم حدوث الفتنة بين المسلمين. ومضى حوالى سبعة وثلاثون عاماً، وحدثت واقعة صِفيّن. وكان الإمام عليّ يقف مع عدد كبير من صحابة الرسول في جبهة، بينما كان في الجبهة الأخرى يقف معاوية وأهل الشام. وكان عمّار بن ياسر ضمن أصحاب عليّ، وقُتل في معركة صِفّين. فأحدث مقتل عمّار بلبلة في صفوف أهل الشام وأصحاب معاوية، حيث أعاد إلى الأذهان حديث

رسول الله ﷺ بأن مقتله يكون على يد فئة باغية. هنا لعب «التحريف المعنويّ» دوره، بمعنى تحريف كلمة الرسول للعامة من الناس وتأويلها، فقال معاوية إن كلام الرسول ﷺ صحيح، وأن قاتل عمّار طاغ وباغ ويسلك طريق الباطل، ولكن قاتل عمّار هو عليٌّ لأنه اصطحب عمّاراً معه إلى المعركة. أجابه أحد الحاضرين في المجلس. إذا كان الأمر كذلك فإن قاتل حمزة سيد الشهداء يكون الرسول ﷺ نفسه، لأن حمزة كان قد جاء لمساعدة النبيّ، والنبيّ هو الذي اصطحب حمزة معه إلى المعركة. ولكن أهل الشام كانوا أعمق جهلاً وغفلة من أن لا تخدعهم هذه المغالطة وهذا التحريف.

إن جهل الناس هو الأرضية المناسبة للتحريف. وعلى الناس أن يكونوا يقظين جدّاً بالنسبة إلى نصوصهم الدينية والأخلاقية لكي لا يطالها التحريف. وإن أخطر أنواع التحريف هو الذي يطال الوثائق والنصوص الدينية، أيّ الكتب السماوية، وأحاديث الرسول ﷺ وسيرته وآثار الأئمة. إن تحريف القرآن عن طريق زيادة أو نقصان كلماته وألفاظه لم يحدث أبداً، ولا ولن يحدث في المستقبل أيضاً، ولكن لا شيء يقف في وَجه عمليات التحريف المعنوي والتفسيرات والتأويلات الخاطئة، وكم أُصيب هذا الكتاب المقدّس من هذه الزاوية؟ فلا شيء أخطر على فاعليَّة هذا الكتاب المقدس من التأويلات والتفسيرات الخاطئة.

إن هذا الكتاب المقدس يتكفل بصيانة المسلمين، شرط أن يتكفل المسلمون من جهتهم بصيانته من التحريف المعنوي أيّ التفسيرات والتأويلات العبثية.

لماذا الانهزامية العقائدية؟

نجد - كثيراً - في مجتمعنا أن شخصاً يعشق المنطق الديالكتيكي مثلاً، دون أن يكون قد استوعبه استيعاباً كاملاً فهي انطباعات ذهنية كوّنها بسبب ما يسمعه هنا وهناك، فيزعم أن منطق الإسلام هو نفس المنطق الديالكتيكي، دون الالتفات إلى أن المنطق الديالكتيكي يحارب دينه وإسلامه ويسعى لاقتلاع جذوره من الأساس. أو نجد شخصاً آخر يعجبه قول من يزعم بأن الاقتصاد يشكل أساس الحياة، فيردّد كالببغاء ودون تدبر أن الاقتصاد هو أساس

الإسلام، دون أن يعي أن مفهوم هذا الكلام هو محو الجانب المعنوي الذي يقوم عليه الإسلام. أو نجد إنهزاميّاً آخر يرى أن الشائع في هذه الفترة هو محاربة الملكية الخاصة فيبادر هو الآخر، ودون أن يعرف شيئاً من الضوابط والقواعد الإسلامية، إلى إنكار الملكية الخاصة وإلى الزعم بأن الإسلام يرفض الملكية الخاصة أيضاً. إنني لا أقول إن نوايا سيئة تكمن وراء هذه المزاعم، ولكن العمل أو الموقف الذي يجرّ خطراً كبيراً لا ينظر إلى ما وراءه من نوايا سواء أكانت سيئة أو حسنة، فلو أن بناية صُب عليها نفطاً، ثم أتي شخص وأشعل كبريتاً، فإنه لا فرق في حدوث أصل الفاجعة حتى ولو كان الهدف من إشعال الكبريت هو إشعال سيجارة وليس حرق المبنى. فعندما يكون الجوّ مفعماً بالغازات المشتعلة، فإن إشعال الكبريت يؤدي إلى الانفجار حتى ولو لم يكن من وراء نيّة سيئة. وبسبب قلقي هذا فإنني أؤكد كثيراً على مسألة الاستقلال، ولا سيما الاستقلال العقدي. فلو لم نقدم رسالتنا المستقلة للمجتمع، فإنه لا ينفعنا إسقاط النظام الملكي حتى ولو نلنا الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي، فبدون الاستقلال الثقافي فإننا سنواجه الهزيمة، ولا نستطيع تثمير ثورتنا الإسلامية.

علينا أن نثبت أن رؤيتنا الإسلامية، لا تتطابق مع الرؤية الغربية ولا مع الرؤية الشرقية، وهي لا ترتبط بأي منهما، كما لا تحتاج لأي منهما. فما هذا المرض الذي يدفع بعضنا لتكييف الرؤية الإسلامية مع الرؤى الأجنبيّة؟

يعمد بعضهم، عندما يتعامل مع القرآن على فرض مختلف التأويلات والتفسيرات حتى يجعله بصورة ما متطابقاً مع أحد المذاهب الغربية أو الشرقية. وقد أشرت مراراً إلى أن البعض عندما يجد كلمة الملائكة فإنه يسعى بأي أسلوب إلى أن يفسر معنى الكلمة ويؤوّلها. وأقول بصراحة إن هذا أسلوب خاطئ. فإذا لم تصلوا بعد إلى مستوى إدراك المفاهيم القرآنية عليكم أن تعملوا وتجاهدوا حتى تفهموها. فسواء شئتم أم أبيتم فإن القرآن يذكر العشرات من المعجزات. وهذه هي من مفاخر القرآن. ولو لم تكن هذه الأمور فإن الدين كان يفقد نصف رسالته. فالدين جاء لكي يوسع نظراتنا. إذ الأمور الحسية لا تحتاج إلى بعث الرسل. بل جاء الدين لكي يدعونا إلى الإيمان

بالغيب، ويريد الدّين أن يرتفع بالإنسان إلى مستوى الاستفادة من القوانين المعنوية، بل ويستخدمها ضد القوانين المادية. فعندما تتدخل القوانين فوق المادية في القوانين المادية وتتصرف فيها، فعندها تكون المعجزة. والقرآن يحتوي على الكثير من المعجزات، ولا أعرف لماذا يخجل البعض من هذا الأمر، فعندما يصل إلى معجزة في القرآن يقوم بتأويلها وتحليلها. فإذا وصلوا إلى إنفلاق البحر لموسى، يقولون إن المقصود هو أن البحر كان في حالة الجَزْر [فعبر موسى وقومه] وعندما جاء فرعون كان البحر في حالة المَدّ [فأغرقهم]. وإذا تحّولت عصا موسى إلى أفعى، قالوا إن المقصود أن قوة المنطق والتعبير عند موسى انتصرت على سلاح فرعون الإعلامي وكالأفعى ابتلعت منطقهم. وتعني هذه التفسيرات إنكار القرآن صراحة، وعدم الاستقلال الفكري، وأننا لم نجعل القرآن لنا إماماً، بل إننا نعتنق المذاهب الأخرى أولاً ثم نسعى بعد ذلك لتفسير القرآن وتأويله وفقاً لها.

إنني أقول ناصحاً: إن من يفكر بهذا المنهج، أيّ يحاول تكييف الإسلام مع المدارس الفكرية الأخرى، أو إقحام عناصر من تلك المدارس في الإسلام، فهو يخدم الاستعمار شاء أم أبى. وإن خدمة هؤلاء للاستعمار هي أكبر من خدمة عملاء الاستعمار سياسيّاً أو اقتصاديّاً، وبالدرجة نفسها تكون خيانتهم للأمة أعظم. من هنا ومع ملاحظة هذه التهديدات فإن من أهم مسؤولياتنا لصيانة الثورة الإسلامية هو الحفاظ على استقلالنا الرسالي والايديولوجي.

التفسير الاشتراكي والماركسي للقرآن!

نجد أحياناً أن بعض الكتابات، وتحت غطاء إسلامي، تقوم بنشر الفكر الماركسي، وهذه خيانة كبيرة. وقد أشرت إلى هذا الموضوع في مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب «علل گرايش به ما ديگري = [أسباب الاتجاه للمادية]».

وقبل فترة حصلت على كُتيّبات حول تفسير القرآن الكريم. ولا أعرف حتى الآن ما إذا كان كُتّاب هذه الكُتيبات أفراداً مغفّلين، أم أنهم عامدون. يُحتمل بالطبع أن يكونوا من العناصر المرهوبة والمتأثرة بالفكر الماركسي، فكتابات هؤلاء تقدم تفسيراً ماركسيّاً لجميع آيات القرآن الكريم.

على سبيل المثال؛ يقول القرآن: «الذين يؤمنون بالغيب»، ويكتب هؤلاء في تفسير الآية أن المقصود بالغيب هو غيب الثورة. إذ تنقسم الثورة إلى مرحلتين: مرحلة الغيب [العمل السّريّ] ومرحلة الشهادة [العمل العلنيّ]، فقبل دحر النظام الإمبرياليّ الحاكم وإسقاطه، لا بدّ أن تكون الثورة في حالة من السرية والخفاء أيّ «الغيب». وحينما يسقط النظام الحاكم تبدأ مرحلة الشهادة [العلنية]. مثلاً: كنا نحن [قبل الثورة] في مرحلة غيب الثورة، أما بعدها فقد دخلنا مرحلة الشهادة الثورية. وأتساءل: لماذا تستدلون بالقرآن؟. باستطاعتكم البوح عن أفكاركم الواقعية، ولا يمكن هنا التمسك بحرية الرأي والتعبير، وأنه لا يجوز لنا الاعتراض عليكم. كلا!، فهذا الأمر لا علاقة له بحرية الرأي، بل هذا هو استخدام الكتاب المقدس للمسلمين كأداة ووسيلة. هذا تآمر وخداع. لأنه خيانة بحق الآخرين وبحريتهم، واستخدام كرامة الآخرين وشرفهم وسيلة، ولا يمكن أن يكون هذا حرية.

فالقرآن كتاب سماويّ، وهو وَحْيٌ مجسّد. ومن يزعم أنه لا وجود للمعجزة في هذا الكتاب السماوي، إما أنه ـ حسب تصوّري ـ لا يفهم شيئاً وجاهل، وإما أنه يكذب وليس مسلماً أساساً. والقرآن يذكر معجزات كثيرة، وهذا الجانب من الكتاب لا يقبل النقاش. ومن الأمور التي أشار إليها القرآن الكريم هو قصة أصحاب الفيل، وكما نفهم من كتب التاريخ، وكما يشير القرآن نفسه فإن الأحباش قرّروا مهاجمة مكة وتدميرها.. هذا المعبد الإبراهيمي. ثم يذكر القرآن أن الله أرسل طيوراً انطلقت من سواحل البحر الأحمر ثم حلّقت [على رؤوس أصحاب الفيل] وهي تحمل في مناقيرها أحجاراً من سِجّيل. ويسمي القرآن هذه الطيور بالأبابيل، ثم قصفت الجيش الحبشيّ بتلك الأحجار، فأصبحوا كعصف مأكول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

إلى هنا، فالموضوع قطعيّ تماماً. ولكن ما هي التفاصيل الأخرى، فهل أُصيبَ الجنود بمرض الجدري أو ما يشبه ذلك؟ فليس معلوماً لنا. ولكن من جهة أخرى كان نزول سورة الفيل بعد أربعين عاماً من هذا الحدث في مكة،

ولهذا السبب فإن الكثير من الأفراد الذين شاهدوا الحدث وعاصروه كانوا لا يزالون أحياءً عندما نزلت السورة، ولو لم يكن هذا الحدث قد وقع كما بيَّنه القرآن لكان أغلب هؤلاء الشهود الذين كانوا من أعداء الرسول يتهمونه بالكذب ويستسخفون كلامه.

ولكن هذه الكُتيبات تكتب حول تفسير هذه السورة: خلاصة القضية أنه في الفترة التي وُلد فيها النبيّ ﷺ كانت تعيش في مكة جماعة ثورية تناضل ضد الاستعمار العالمي. ثم اكتشف الاستعمار العالمي هذه الجماعة الثورية وهاجم مكة للقضاء عليها، فطارت هذه الفئة كالطيور ودمرت جنود الاستعمار. ثم يقول كاتب التفسير: إن عدم ذكر هذا الموضوع في كتب التاريخ ليس أمراً مهمّاً. فنحن لا نستطيع أن نتنازل عن رأينا لمجرد أن الموضوع لم يُذكر في أيّ مكان بهذه الصورة.

واضح أن هذا الفهم للقرآن، غير سليم. إنني أنصح هؤلاء الإخوة وأعظهم بأنه لو وجدتم بعض مفسري القرآن يسلكون طريق الاحتياط إلى حدّ الوسواس ـ وبالطبع إنني لا أوافقهم على هذا ـ فذلك يعود لحسابات يتمسكون بها، إذ لا يريدون أن يعبّروا عما في ضمائرهم باسم الآيات القرآنية دون تروٍّ وتحقيق. ولكن من الجهة الأخرى لا يجوز أيضاً سلوك طريق التطرف. فالإسلام يقول إن جميع الكون بكل قوانينه وأجزائه بدءاً من الحجر والهواء والماء، وانتهاءً بالطير والسمك و.. و.. وكل شيء مسخّر لإرادة الله -عزّ وجلّ-، وهي تُعَدّ من جنود الله، ويكفي أن تتعلق المشيئة الإلهية حتى يتحول الهواء كجيش مدمر، . . .

فإذا شاء الله فإنه يستطيع أن يغير أوضاع الكون كما يريد. ولكن وللأسف فإن حَمَلة تلك الأفكار لا يريدون الخضوع لهذه الحقائق. يقولون: لأن المادة والماديات مستقرة وثابتة بالذات، فليس بالإمكان أن تخرج من مسيرها المحدد، لذلك فهم يفسرون آيات القرآن بهذه الصورة. إنني أُعلن بصراحة أن نشر هذه الأفكار لا يشكل أيّة خدمة للإسلام، بل هو خدمة للاستعمار[13].

(13) المصدر السابق، ص14-17.